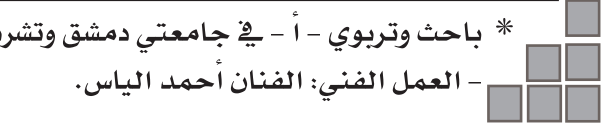


مفاهيم تربية الطفل عند ابن سينا

د. محمود علي عبد اللطيف*

المقدمة:

هو أبو علي الحسين بن عبدالله بن الحسن بن علي بن سينا. ولد في صفر ٣٧٠ هـ في شهر آب ٩٨٠م من أسرة فارسية الأصل في قرية (أفشنة) قرب بخارى في تركستان أو ما يعرف حالياً بجمهورية أزبكستان، حفظ القرآن الكريم وألم بعلم النحو وهو في العاشرة من عمره، غادر بخارى وهو في العشرين من عمره، وقضى باقي عمره متنقلاً بين مختلف المدن الفارسية[1].



* باحث وتربوي - أ - في جامعتي دمشق وتشرين.

- العمل الفني: الفنان أحمد الياس.

والشيخ الرئيس ـ ابن سينا ـ عالم جليل من أعلام الإسلام الموسوعيين الذي تنوع فيهم عطاء الله وتعددت في اهتماماته فروع المعرفة والثقافة حتى قيل إنه لم يظهر علم من العلوم أو فن من الفنون في عصره إلاو ترك فيه مؤلفاً أو رسالة. ولما توفي سنة ١٠٣٧ م كان يعدّ وقتئ أحد عباقرة الفلسفة في الإسلام، فقد ترك تراثاً ضخماً ينهل منه المتخصصون من كل صوب، ففي مجال الطب وضع في مصاف جالينوس حيث أطلق عليه لقب جالينوس الإسلام، وبسبب شهرته الواسعة أقيمت المهرجانات في معظم بلدان العالم وخاصة البلدان العربية والإسلامية سواء أكان بسبب وفاته أو بسبب ولادته. وفي عام ١٩٧٨ دعت منظمة اليونسكو كل أعضائها للمشاركة في احتفال إحياء ذكرى مرور ألف عام على ولادة ابن سنا وذلك اعترافاً بمساهماته في مجال الفلسفة والطب. وفي عام ١٩٨٠ استجاب كل أعضاء المنظمة للدعوة وشاركوا في الاحتفال.

عُرف ابن سينا بألقاب كثيرة منها: حجة الحق، شرف الملك، الشيخ الرئيس، الحكيم، الدستور المعلم الثالث، الوزير.

توفي في همدان في شهر شعبان ٤٢٨ هـ ١٠٣٦ م.

كتب ابن سينا في كل فروع العلم التي كانت منتشرة في ذلك الوقت، إلا أكثر ما اهتم به هو الفلسفة والطب. وبعض المؤرخين المعاصرين يعتبرونه فيلسوفاً أكثر منه طبيباً، إلا أن آخرين يعتبرونه أمير الأطباء في القرون الوسطى(٢) وقد صنفت مؤلفاته وفق محتوياتها كما يلي ٤٣ مؤلفاً في الطب، ٢٤ مؤلفاً في الفلسفة، ٢٦ مؤلفاً في الطبيعيات، ٣١مؤلفاً في علوم الدين، ٢٣ مؤلفاً في علم النفس، ١٥ مؤلفاً في الرياضيات، ٢٢ مؤلفاً في المنطق، ٥ مؤلفات في علوم تفسير القرآن، إضافة إلى المؤلفات الأخرى في الزهد والعشق والموسيقى وبعض القصص.

آراء ابن سينا التربوية في مجال تربية الطفل:

تقوم آراء ابن سينا التربوية في مجال تربية الطفل على أساس نظراته للإنسان والمجتمع والمعرفة والأخلاق فقد تحدث بإسهاب عن الطفولة المبكر وكل ما يتصل بها من رضاع وفطام وتربية صحية وأخلاقية وذوقية، وتناول الجوانب التربوية بكافة مضامينها. وركز على الاعتماد على النفس والتربية الاستقلالية، وركز على تربية الطفل في المرحلة الأولى بشكل خاص إذ أدرك ـ قبل

علماء النفس والتربية المحدثين. أهمية سن الطفولة الأولى في تنشئة الطفل. وفي تمتعه بأكبر قسط من الصحة النفسية والعقلية في مستقبل حياته، ولذلك أطال الشيخ الرئيس الحديث عن أحسن السبل في معاملة الطفل، وكل ما يتصل به من رضاع وفطام ونظافة.

وهذا يشير إلى مدى تفكيره في كسب العلم للعلم ذاته، وأنه أهمل مادون ذلك من الأغراض، والحق إن الأغراض تختلف باختلاف الأمم والعصور والبيئات، وقدتختلف في الأمة الواحدة، كما حدث في أثينا وإسبرطة من بلاد الإغريق، فقد كانت أثينا تفكر في الحكمة والفلسفة والأدب، في حين أن إسبرطة كانت تضحي بكل شيء في سبيل بعض جوانب التربية (الجسمية والعسكرية). وابن سينا يرى أنه لايكفي أن يقصر المربي نفسه على غرض معين ويهمل غيره من الأغراض، بل يجب أن يعنى بتربية (اليد والرأس والقلب) في الإنسان وهذا ما يعبر عنه المربون في اللغة الإنكليزية بالهاءات الثلاثة(٣). غير أن أكثر آرائه التربوية نجدها في الرسالة المسماة بـ(كتاب السياسة) وإن أبرز ما تميز به المذهب التربوي عند الشيخ الرئيس هو(٤):

١. إن التربيــة السيناوية لم تقتصر على مرحلة واحدة وهي دخول الطفل المدرسة بل شملت تربية الطفل منذ لحظة ولادته حتى انخراطه في الحياة الاجتماعية.

٢. إن التربيــة السيناوية لم تركز على جانــب واحــد مــن جوانــب الشخصية الإنسانيــة، لتهمل الجوانــب الأخرى بل اهتمــت بوحــدة الشخصيــة الإنسانية وتكاملها الفعلي والجسدي والانفعالي.

٣. إن التربية السيناوية تأثرت بتعاليم الديــن الإسلامي وبخاصة القرآن الكريم والسُنَّــة النبويــة كمــا تأثــر بالفلسفــة اليونانية.

٤. إن التربيــة السيناوية حرصت على تدعيم آرائه بمبررات نفسانية، ونشير إلى أنه نجح نجاحاً كبيراً في هذا الميدان، وهذا ما يحملنا على الاعتقاد أن ذلك عائد إلى حد كبير إلى امتهانه مهنة الطب.

الإبداع الفكري لابن سينا في تربية الطفل:

الطفولــة حيــاة قائمــة بحــد ذاتها ومرحلــة تمولها قوانينهــا ونظرياتها في التربية وعلم النفســ وهي ليست مجرد فكرة زمنية يمر بها الإنسان دون أن يفهم ويدر ويفسر ما يــدور حوله من متغيرات بيئية مستخدماً حواسه و عقله في التعامل مع هذ المتغيرات.

لقــد اهتم ابن سينــا بدراسة وتحليل سمات مرحلة الطفولة وكانت آراؤه مبني على أســاســ الملاحظة والحدس واستلهام مــا ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهــرة لتشكل هــذه الآراء نسفاً فكرياً أشبه مــا يكــون بنظرية وكمــا يوصفها محمــود قنبر: «لم تصــل إلينا هذه النظرة في بنية فكرية كاملة بذاتها اصطلح عليها المربون، ويمكن نسبتها إلى مصدر واحد، أو إلى مفكر تربوي معروف، أو إلى منظر فلسفي، يشر بهــا وروج لها، أو إلى أهمية تربوية اشتغلــت بها.. لقد جاءت إلينا في شكل معان أوليــة مستلهمة من كتاب الله عز وجل وسنــة رسوله وقد وقف أمامها نفــر من العلماء المسلمين بالبحث والنظر فحولوهــا إلى مفاهيــم متوافقة ومتآلفة تكــوّن بينهــا مبــادئ النظريــة التربوية الخاصة بتربية الطفل»[٥].

والحق إن الإسهامات الفكرية العربية التــي اضطلع بها المربــون تناولت جميع المراحل التي يمر بهــا الطفل منذ نشأته وحتى بلوغــه سن الرشد وذلك من خلال تنمي طاقاته المختلفة: الجسمية والعقلية والروحيــة، وتوفير الحاجــات الأساسية لكل طفل في جميــع مراحل حياته. فمن الأهمية بمكان أن يعيش الإنسان في أسرة

يحمل أفرادها مشاعر المحبة والتعاون، والإسلام الذي يعتبر الأبناء زينة الحياة الدنيا يطالب في الوقت ذاته بحسن تربيتهم ويرى ابن سينا أن مجرد حب الوالد لولده لايوصل الأبناء إلى الأهداف المنشودة، إلا إذا كان سلوك الوالدين منسجماً مع حاجات الطفل، لأن سلوك الوالدين يعتبر أحد العوامل الرئيسة المؤثر في حياته.

وهذا التأثير يبدأ منذ الأيام الأولى: أي قبل اكتساب الوليد الإنساني اللغة والتفاهم مع الآخرين عن طريق الألفاظ، فإطعام الوالدين الطفل الطعام ومداعبتهما له وحمله، أقدر أن تشعر الطفل بأهميته وبمدى تقبل من حوله لشخصيته، وبما أن الوالدين حريصان على إشباع حاجات الطفل فإنهما يسهمان في نمو الشعور بالأمن والطمأنينة عند ذلك الطفل.

والحق إن الوالدين يلعبان دوراً أساسياً في تنمي القدرة على استخدام الألفاظ للدلالة على الأشياء المحيطة بالطفل، فاللغة لاتكتسب إلا من خلال المحادثة مع الآخرين. «ومن هنا وجب على الوالدين الإصغاء إلى الطفل وتبادل الأحاديث معه، لأن هذا يغنيه ثروته اللغوية، ويعمل على إقامة علاقات قوية مع الأشخاص المحيطين به»[٦].

يشير ابن سينا إلى أن العلاقة بين الوالدين والطفل هي علاقة تأثير وتأثر، وكما أن الوالدين يسهمان في تعليم الطفل الشيء الكثير، فإنهما في الوقت ذاته يتعلمان أموراً عديدة من خلال التعامل معه وملاحظة ما يصدر عنه من أقوال وأفعال. ومن هنا فإنه يحسن بالوالدين التعرف على القدرات الحقيقية للطفل كيف لايضعا له من مستويات الطموح ما لايتفق وقدراته. فالوالدين يعلمان الطفل الثقة بالنفس أو الشك فيها، الإقبال على الحياة أو النفور منها، ومن الممارسات التي تعطي ثماراً طيبة وتعمل على نمو شخصية الأبناء نمواً سليماً: مدح الأطفال عندما يصيبون، وتنمية حب الاستطلاع لديهم، وقضاء فترة كافية معهم، وهذا يتطلب من الوالدين التحلي بالعديد من الصفات مثل الصبر والقدرة على إدراك ما قد يواجههم، ومعرفة الحقائق المتصلة بالنمو خاصة في مرحلة الطفولة.

وبذا يرى ابن سينا أن الحب والحنان والعطف بهذا الأسلوب السليم في التربية يؤدي إلى توثيق الصلة بين الآباء والأطفال والمحيط الخارجي ويتطلب ذلك بالدرجة الأولى كما يرى الشيخ الرئيس مايلي:

إكرام الطفل:

١. أول مبـــادىء الإكـــرام عـــدم سب الطفـــل لأي سبب، فلا يقـــال له يا شقي أو يـــا كسول، أو يقال الله يلعنك وقد قال الرسول (ص): «سباب المسلم فسوق».

٢. عدم ضرب الطفـــل إلا لذنب كبير، وقد نهـــى الإسلام عن ضرب الطفل على الوجـــه والتربيـــة المعاصرة أكـــدت عدم استخدام العنف ضد الطفل لما لذلك من خطر على شخصيته.

٣. على الأبوين أن يكونا قدوة لأبنائهما، فـــإذا كانـــا متحابين ودوديـــن عطوفين، انتقلت هذه الصفات إلى أبنائهما.

٤. احترام مشاعر الطفل لأن هذا الأمر يخلق روح المـــودة والترابط بين الأسرة في جميع جوانب الحياة.

٥. أن تتـــولى الأم تربية أبنائها بنفسها وعدم الاعتماد علـــى الخدم والخادمات في تربية الطفل فالتربية الصحيحة تجعل الطفـــل مطيعاً لوالديه محباً لأسرته واثقاً بنفســـه، فتربية الخدم تجعل من الأطفال أطفـــالاً غير مهذبين لاختـــلاف العادات والتقاليد والقيم الخلقية، بين الأهل وبين الخدم.

ونشـــير إلى أن الإســـلام قد أقر مبدأ رعاية الوالدين للأبناء، فللمرء أن يستعين بالسبل المتعـــددة الموصلة إلى تحقيق هذا الهدف، شريطة أن لاتتعارض هذه السبل مع مبادئ الإسلام، أو تصطدم بقواعده. كان رسول الله (ص) يعلم الإنسان كيف يعامل طفله؟ كيف يكون ودوداً مع أطفاله ليـــزرع الثقـــة في نفوسهـــم ويزرع الحب والحنـــان والعطـــف في قلـــوب الأطفال، ليسهل على الأبناء تقبل توجيهات آبائهم وتعليماتهم لما يلقون من بذور المحبة ومن المعاملـــة الحسنـــة، وقد قـــال رسول الله (ص): «رحم الله والدين أعانا ابنهما على برهما».

(الوالـــدان هما أول من يتفاعل معهما الطفل بصورة تـــكاد تكون مستمرة، فهما يقدمـــان للطفل نماذج حيـــة عن الحياة الإنسانية، ولذا فإن سلوك الوالدين يعتبر أحـــد العوامل الرئيســـة المؤثرة في حياة الطفـــل)[٧]. ومن الواجب علـــى الوالدين أن يحرصا أولاً وقبل كل شيء على غرس بذور الأخلاق الفاضلة في نفس أطفالهما، وتعويدهما العـــادات الكريمة والخصال الحميـــدة والآداب الرفيعـــة وتجنبهمـــا الترف الزائد والبذخ، وإبعادهما عن قرناء السوء، وفي هذا يقول الغزالي[٨]:

عن تربية الوالـــد لولده وصيانته، بأن يؤدبه ويعلِّمه محاســـن الأخلاق ويحفظه

من قرنــاء السوء ولايعوده التنعم والترف، ولايحبب إليــه الزينة، وأسباب الرفاهية فيضيــع عمره في طلبهــا إذا كبر فيخسر عمــره، بــل ينبغــي أن يراقبه مــن أول عمره.

ويقول علماء التربية المعاصرين: بادروا بتعليم الأطفــال قبل تراكم الأشغال، وإنه وإن كان الكبير أوفر عقلاً، فإنه أشغل قلباً ويقول الشاعر:

إذا المـرء أعيتـه المـروءة ناشئاً
فمطلبها كهلاً عليـه شديـد

والتربية المعاصرة اهتمت بتعليم الطفل المهنة التي يحبهــا ويعشقها ويبذل جهده في تعلمها والاستفــادة منها كما يرى ابن سينا (الشيخ الرئيس) إذ يقول[9]:

«إنــه ليست كل صناعة (مهنة) يرومها الصبي ممكنــة له مواتية، ولكن ينبغي له أن يزاول مشاكل طبعه، ولقد روي أن يونس بن حبيب كان يتردد على الخليل بن أحمد الفراهيــدي ليتعلم منه العروض والشعر، فصعب ذلك عليه، فقال له الخليل يوماً: من أي بحر قول الشاعر:

إذا لم تستطـع شيئـاً فدعـه
وجـــاوزه إلى مـا تستطيـع

ففطن يونس بن حبيب لقصد الخليل بــن أحمد وتوجــه إلى أغراض أخرى في العلم غير العروض ونظم القوافي.

الدلالات التربويّة لتنشئة الطفل عند ابن سينا:

خصص ابــن سينا في الكتــاب الأول مــن كتاب القانون في الطب فصلاً خاصاً تناول فيــه الطرق الحكيمة لتربية الطفل وقــد سمــاه «التعليــم الأول في التربية»، وقسمه إلى أربعة مقالات[10].

في المقال الأول تنــاول بالحديث عن تدبــير المولود منذ أن يولد إلى أن ينهض، في حــين أنه بحــث في المقالة الثانية عن الإرضــاع، وفي ذلك ألح علــى أن يرضع الطفــل لــبن أمه مــا أمكن فإنــه أشبه الأغذيــة بجوهر ما سلف من غذائه وهو في الرحم، ثم تحدث ابن سينا عن موضوع الفطام وأكد علــى أن يكون تدريجياً، أما المقالة الثالثة فقد تناولت بعض أمراض الطفولة وضرورة الوقاية منها، وفي المقالة الرابعة تحدث ابن سينا عن تربية الطفل حتى ســن البلوغ، وفيه يستعرض فصول التربيــة النفسية للأطفــال وفق أحسن الطرق التربوية المعروفة حالياً».

وفي مجال تدبير المولود يشير اب سينا إلى الخصائص التي يجب اتباعها في تلك المرحلة بحيث يتم تنفيذها وفق الأساليب التــي تلائــم وضعه الصحــي باستخدام حاجاته الضرورية وفق الشروط الصحيحة

الملائمة من حيث النظافة واللباس وكيفية الإمساك به ووضعه في مكان معتدل الهواء ليس ببارد ولاحار حسب حرارة الجو في الصيف والشتاء.

وفي مجال إرضاع الطفل يؤكد ابن سينا على ضرورة بذل كل المجالات لأن يرضع الوليد من لبن أمه، لأنه تأكد بالتجربة أن تناول الطفل لحليب أمه عظيم النفع ويبعده عنه ما يؤذيه، ويشير ابن سينا إلى أنه من الأفضل إعطاء الطفل ملعقة عسل وبعد ذلك تتم رضاعته، وبذا يقول[١١]:

«من الواجب أن يلزم الطفل شيئين نافعين أيضاً لتقوية مزاجه أحدهما التحريك اللطيف والآخر الموسيقي والتلحين الذي جرت به العادة لتنويم الأطفال وبمقدار قبوله» في حالة وجود مايمنع من تلقي الوليد حليب والدته يبين ابن سينا إلى أنه ينبغي أن يختار له مرضعة تنطبق عليها شروط معينة، بعضها في السن وبعضها في الأخلاق وبعضها في هيئة ثديها وبعضها في كيفية لبنها وبعضها في مقدار مدة ما بينها وبين وضعها، وبعضها من جنس مولودها»[١٢]. أما فيما يتعلق بشرط سن المرضعة فيشير ابن سينا[١٣] إلى أن أفضل سن هو ما بين خمس وعشرين سنة وخمس وثلاثين سنة فهو سن الشباب وسن الصحة والكمال. أما شروط سحنتها وتركيبها فيجب أن تكون حسنة اللون قوية العنق واسعة الصدر متوسطة في السمن والهزال لحمانية لاشحمانية». وأما في أخلاق المرضعة فيجب أن تكون حسنة الأخلاق، بطيئة الانفعالات النفسانية الرديئة من الغضب والغم والجبن وغير ذلك فإن جميع ذلك يفسد المزاج. ذكرني ذلك في قول أحد الأطباء النفسانيين أن أماً مرضعة كانت عصبية وشديدة الانفعالات النفسانية وسريعة الغضب جاء أولادها جميعاً على نفس شاكلتها من حيث العصبية والانفعال وسرعة الغضب، وأكد لي أنك إذا أردت الحديث أو الحوار مع أحد أولادها فلن تستطيع أن تبني حوارك معه أو يعبر عن حاجته إلا بعصبية وبصوت عالٍ كأنك أمام حالة من فقدان الذاكرة أو العقل حتى وإن كان الأمر لايستدعي ذلك الوقت.

وأكد أنه من خلاله معالجته لم يصل إلى نتيجة للحد من هذا السلوك نتيجة العادات المكتسبة منذ الطفولة وهذا يوضح حقيقة مدى التأثير والتأثر بين الأم المرضعة ووليدها باكتساب العادات التي تتميز بها.

ويوضح ابن سينا حقيقة لازال لها

أهميتها في مسألة إرضاع الوليد أولاً، ومسألة الفطام المفاجئ وهذا ماتلح عليه المراجع الطبية الحديثة والتي تؤكد أنه لا شيء على الطفل أضر من المرضعة شديدة الانفعال النفسي والغضب والغموالجبن[١٥] ومن الفطام المفاجئ، وقد ذكر ابن سينا هذه الحقيقة عندما قال: إن المرضعة يجب أن تنطبق عليها شروط معينة تتعلق بالصحة النفسية والأخلاق الحميدة، ويجب أن يكون الفطام تدريجياً لادفعة واحدة، يقول ابن سينا في كتابه القانون في الطب[١٦] : «يجب أن يرضع الطفل ما أمكن من لبن أمه، فإنه أشبه الأغذية بجوهر ما سلف من غذائه، بهذه العبارة التي أوصى بها ابن سينا بالرضاعة الطبيعية وضرورتها نجده قد سبق الدعوات العالمية التي تدعو وتحث على الإرضاع الطبيعي للطفل وتحذر من أخطار الإرضاع الصناعي، وفي حال تعذر الرضاعة من الأم فلا مانع من اللجوء إلى مرضعة تنطبق عليها الشروط التي سبق ذكرها خاصة توفر الصحة الجسدية والخلقية عن المرضعة.

والحق إن ابن سينا أدرك أهمية مرحلة الطفولة وأولاها الأهمية البالغة في جميع مراحل نمو الطفل. فهو يتعرض بالحديث عن بعض الأمراض التي يصاب بها الطفل مع ذكر علاجاتها، من ذلك تحدث عن أورام يتعرض لها الطفل عند نبات الأسنان، ويشير إلى علاج ذلك باستخدام بعض الدهون والعسل، فهو لم يدع حالة من الحالات المرضية التي قد يصاب فيها الطفل إلا وتحدث عنها ووضع العلاج لها وقد أوضح أن الإصابة الخفيفة لاتحتاج إلى علاج مطلقاً، أما في الحالات الشديدة فلابد من علاجها،وهذا الأمر هو قريب جداً لما يطبق اليوم.

ويشير الشيخ الرئيس إلى أنه قد يصاب الطفل بسوء التنفس وهو ما يسمى اليوم بمرض الربو وحدد العلاج باستعمال بزر الكتان والعسل، وفي حال إصابة الطفل بالقلاع يؤكد ابن سينا على ضرورة استخدام البنفسج المسحوق وحده في مثل هذه الحالة، ومن الممكن خلطه بالورد إضافة إلى علاجات الأمراض التي يتعرض لها الطفل، ونبّه ابن سينا إلى إمكانية أن يتعرض الطفل لأحلام تفزعه في نومه، ويعزوه لفساد الطعام في المعدة وحدد العلاج لذلك بإلعاقه العسل وهذا يريح الطفل.

وتناول الشيخ الرئيس مرحلة التكوين الخلقي والسلوكي للطفل، ويؤكد على

ضـرورة مراعـاة نفسية الطفـل بحيث لايصيبه غضب شديد أو خوف شديد أو غـم أو سهر ويبـين أن في ذلك منفعتان: «أولاهمـا في نفسه بأن ينشأ من الطفولة حسـن الأخـلاق ويصير ذلك لـه ملكة لازمة، والثانية لبدنه فإنه كما أن الأخلاق الرديئـة تابعة لأنواع سـوء المزاج فكذلك إذا انحرفـت عـن العـادة استتبعت سوء المزاج المناسب بها». وهكذا يكون ابن سينا قد وضـع منهجاً تربويـاً يفي بمتطلبات المجتمـع ويساعـده علـى معالجة جميع متطلباتـه الحياتية الفردية أو المجتمعية، وإن النصائـح والإشـارات التـي قدمها لتربيـة الطفل تجعل معلمنـا (ابن سينا) مـن أصحاب المذاهـب التربوية الجديرة بالدراسـة والاهتمـام في مذهـب هـذا الفيلسوف مـن الآراء والنظريات العلمية ما يجعله جديراً بأن يمد الإنسانية بمعين لاينصب من المعرفـة، ومايتفرع عنه من تربيـة وسياسة وإصلاح، بعـد أن أمدها بمعين من الفلسفة والطب.

لقـد أسهـم ابـن سينـا مـن خلال كتابـه السياسة في وضـع قواعد التربية الإسلامية، وله في ذلك آراء تربوية هامة يجب الوقوف عندها وعدم إغفالها لأنها تعدّ من المكونات الأساسية لتربية الطفل.

يقول في ذلـك[٢٠]: «ينبغي البـدء بتعليم القرآن بمجرد تهيؤ الطفل للتلقين جمسياً وعقليـاً، وفي الوقت نفسـه يتعلم حروف الهجاء ويلقن معالم الدين، ثم يروي الصبي الشعر مبتـداً بالرجز ثم بالقصيدة، لأن رواية الرجـز وحفظه أيسـر إذ إن بيوته أصغر ووزنـه أخف، علـى أن يختار من الشعر ما قيل في فضل الأدب ومدح العلم وذم الجهـل، وما حث على بـر الوالدين واصطناع المعـروف وإكرام الضيف. فإذا فرغ الصبي من حفظ القرآن وألمّ بأصول اللغـة ينظر عند ذلـك في توجيهه إلى ما يلائم طبيعته واستعداده»[٢١].

ويشـير الشيـخ الرئيسـ إلى مراعاة قـدرة الطفل على التعلم وأن يكون مربي الصبـي مراعيا لطبعه وما يناسبه. فإن أراد الكتابـة مثلاً أضاف إلى دراسة اللغة دراسة الرسائل والخطب ومناقلات الناس ومحاوراتهم وما شابهها. وما نصح به ابن سينا يتلاءم مع التربية الحديثة حيث يجب الأخذ بعين الاعتبار ميول الطفل وتوجهاته لكي يكون مبدعـاً في دراسته ومترفقاً في مهنتـه المستقبلية ليعرج إلى وجود أحسن، وسلـوك أنقـى للوصـول إلى الحقيقة، والحقيقة ذاتها قيمة لدى أنصارها، قيمة تتمس التربية السيناوية بأهدابها.

أجــل، قد يصــح قولنــا: إن للطبيعة اللاعضويــة لغــة، ولكــن من بــاب لغة الغريزة لاغريزة اللغة، والغريزة كما يقال، موسومة بأنهــا معرفة عفويــة، تلقائية، فــلا تحتاج إلى تعليم، وإنمــا تبلغ غايتها بأفعــال استمرار وتكــرار، استمرار بقاء لغة الطبيعــة الطبيعية على ما هي عليه، وتكرارها الاجــتراري عبر الحق والثواني سواء بسواء، فليســ لها تجدد، ولانماء، بل بقاء علــى سنن البقاء، أو تحول بآلاء التحول، وكأنها لشبه بعضه ببعض، ذاكرة موصولة، أو طفــرات متجانسة متناقضة ولكنها غير متباينة بالنوع.

وألمح ابــن سينا إلى الصفات السلوكية والخلقية التــي يجب أن يتصف بها معلّم الصبي بحيــث يتمتع بالقدوة الحسنة لمن يعلمهم فهــو يقول(٢٢): «ينبغــي أن يكون مؤدب الصبي عاقلاً ذا دين،بصيراً برياضة الأخلاق، حاذقاً بتخريج الصبيان، وقوراً رزينــاً غير كــز ولاجامد، حلــواً لبيباً ذا مروءة ونظافة ونزاهة. كما يؤكد ابن سينا على ضــرورة النظر إلى أقران الصبي، إذ إنه كثيراً مايتعلم منهم، لذلك فهو يرى أن يحاط الصبي مع مــن هم حسنة آدابهم، مرضيــة عاداتهم كما قــال: «لأن الصبي عــن الصبي ألقــن، وهو عنــه آخذ وبه آنس». ثم يقــول: «والمحادثة تفيد انشراح العقــل، وتحل منعقد الفهم، لأن كل واحد مــن أولئك إنما يتحدث بأعــذب ما رأى وأغــرب ما سمع فتكــون غرابة الحديث سبباً للتعجب منــه وسبباً لحفظه وداعياً إلى التحدث، ثم إنهم يتوافقون ويتعارضون ويتقارضــون الحقوق، كل ذلك من أسباب المباراة والمباهاة والمساجلة والمحاكاة، وفي ذلك تهذيــب لأخلاقهم وتحريك لهممهم وتمرين لهممهم».

أمــا فيمــا يتعلــق بتنميــة القــدرة الكلامية عند الصبي، فإن ذلك ينبثق من طبيعة الإنسان الثقافيــة طبيعة الإنسان بصفــة الإنســان، وإذ ذاك تنبثق غريزة اللغة، في قلب غريــزة الاجتماع، وتوجب الحاجــة الشاملة اللازبة الدائبة والنامية والمتجــددة، الحاجــة إلى اللغــة والمنطق والــكلام، وتشــير الدكتــورة وسمية عبد المحسن المنصور في توظيف المأثور القولي في تنميــة لغة الطفــل القــول الآتي(٢٣): «الــكلام عملية معجزة معقــدة تتهيأ لها أجهزة متعددة في الجسم الإنساني، وتؤثر فيه عوامل خارجية تساهم في أداء العملية الكلامية مثل الظرف الاجتماعي، وتأثير الحالة النفسية للمتكلم، بل حالة الطقس والمناخ وما يطرأ على المجتمع من تغيرات

سياسيـــة واقتصادية بتفــاوت تأثيرها في آليات الكلام عند الفــرد، ويكشف مسار العمليـــة الكلامية عــن العلاقة التكاملية بين النمو الفسيولوجـــي والنمو اللغوي.. وهـــذه العمليـــة تخضع لمؤثريـــن: داخلي وهـــو آليـــة النطق.. وخارجـــي يكون فيه المتكلم مكتسباً متأثــراً بما يحيط به من منتج لغوي.. ونقصد به مجموع العمليات العقلية من قبـــول ورفض وتذكر وتخيل واسترجاع».

خصص ابن سينا في القسم الأول من كتاب القانـــون في الطب فصـــلاً خاصاً عن تربيـــة الأطفال وأمراضهم وركز على حالات صعوبة النطـــق والكلام، ويرى أن أسبـــاب الخلل في الكلام قد تكون من آفة في الدماغ وفي مخرج العصب الجائي إلى اللسان المحـــرك، وقد يكـــون في الشعبة نفسها، وقد يكون في العضلة نفسها ويبين بالوصف ذلك الخلل فيقول[٢٤]:

«وذلك الخلل إما تشنج، وإما تمدد أو تصلب أو استرخاء أو قصر رباط أو تعقد جراحة اندملـــت أو ورم صلب، وقد يكون ذلك من رطوبـــة في الأكثر، وقد يكون من يبوسة، وقـــد تكون الآفة في الكلام لسبب في عضلـــة الحنجرة إذا كان فيها تمدد أو استرخاء، فربما كان يتعذر عليه التصويت في أول الأمـــر إلا أنـــه يعنـــف في تحريك عضل صدره وحنجرتـــه تعنيفاً لاتحتمله تلك العضلـــة، فتعصى، فإذا يبس في أول كلمـــة ولفظـــة استرسل بعد ذلـــك. ومثل هذا الطفل يجب ألا يستعد للكلام بنفس عظيم وتحريك للصـــدر عظيم بل يشرع فيه بالهوينا فإنه إذا اعتاد ذلك سهل عليه الكلام واعتاد السهول فيه».

وممـــا يـــدل علـــى بعـــد النظـــر ابن سينا وفهمـــه العميق لحاجـــات الطفولة وأسرارهـــا[٢٥] لانجـــد غيره مـــن المربين مـــن انتبه إلى هـــذه النواحي مجتمعة من حيث الاهتمام بأخـــلاق الأطفال والربط بين تكـــوّن الأخلاق في مرحلـــة الطفولة وبين الانفعالات العنيفة والسهر والغذاء. وتقديره لأهميـــة مرحلة المراهقة والبلوغ ووضعه قواعد خاصة لتدبير أمور البالغين عند بلوغهم سن الرابعة عشرة، واهتمامه الكبير بالتربية الرياضية ومن ذلك[٢٦]:

١. تنوع الألعـــاب الرياضية، وتحديده للأوقـــات المناسبة للتدريبـــات الرياضية المختلفة.

٢. ربطـــه الاستحمـــام بالتدريبـــات الرياضية، وهذا يدل على فهمهم الدقيق لحاجات الجسم البشري وكيفية تلبيتها.

٣. ربط تدليك الجسم بالرياضة.

يلتقـي ابن سين مـع علماء العصر في تقريـر تعليم الطفل مـن السنة السادسة مـن العمر، ويشـير إلى أهميـة التوجيه المهنـي[٢٧]، أي توجيه الطفـل إلى دراسة ما يناسب طبعـه، وقد تناول هذه الفكرة عن ابن سينا كثير من الباحثين في التربية منهـم الدكتور عبد الله عبـد الدايم[٢٨] والدكتور أحمد شلبي[٢٩] والدكتور محمود عبد اللطيف[٣٠].

قـال الدكتـور عبدالله عبـد الدايم: «ومـن آراء ابن سينا التي تلتقي مع الآراء الحديثة اليوم قوله بمسايرة ميول الصبي إلى الصناعـة أو المهنـة التـي تتفق مع قابلياته، ذلك أنه ليس كل صناعة يرومها الصبـي ممكنة له مؤاتية، ولكن ما شاكل طبع وناسبه، ولو كانت الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمزاج دون المشاكلة والملازمـة، إذن مـا كان أحـد غفلاً من الأدب وعاريـاً من صناعـة، وأذن لأجمع النـاس كلهم علـى اختيار أشـرف وأرفع الصناعـات. وينبغي لمدير الصبي إذا رام اختيـار صناعة أن يـزن أولاً طبع الصب ويسـبر قريحته ويختـبر ذكاءه فيختار له الصناعات بحسب ذلك»[٣٢].

وتنـاول الدكتور أحمـد شلبي الفكرة ذاتهـا عن ابـن سينا قائـلا: «ويدل هذا الرأي على عمق تفكير ابن سينا ورجاحة عقله وأنه سبق عصره بألف سنة»[٣٣].

ثم تناول الدكتور محمود عبد اللطيف ذلـك بقولـه: «إن غالبيـة مايتعرض له الإنسـان، ويطلب إليه الحديـث عنها أو الكتابة فيها تركـز على الوصف والتعبير عن الـذات والخيال، وحتى هـذه تبعده عن الواقع الذي يعيشـ فيه لأنها تتناول قضايـا بعيدة كل البعد عـن حياته، كما أنهـا لاتتناسب مـع الزمن الـذي يعيش فيه، وهـذا يؤخ نمو الطالـب في التعبير عـن حاجاته وتقرير ميولـه المهنية، وأن الإزدواجية التي يعاني منها المتعلم بين لغة الحياة ولغة التعلم مـا تزال تشكل عائقاً يحول بينـه وبين الانطلاق في التعبير عن حاجاته»[٣٤].

والحق إنَّ ابن سينا تناول في كتابه آراء في السياسة أفـكاراً تربوية هامة تحدث عنها كثير من المربـين الأجانب وترجمها بعض الأساتذة العـرب، وتم نشرها على أنهـا من مبادئ التربية الحديثة التي تعبر عـن إحاطة وشمول بتربيـة الإنسان منذ أن يكـون جنيناً في بطن أمه إلى أن يولد وينمو ويمر في مراحل العمر المختلفة.

الوالدان همـا أول من يتفاعل معهما الطفل بصورة تـكاد تكون مستمرة، فهما

يقدمـــان للطفل نماذج حيـــة عن الحياة الإنسانيـــة، ولـــذا فإن سلـــوك الوالدين يعتبر أحـــد العوامل الرئيســـة المؤثرة في حياة الطفل، وهذا التأثير يبدأ منذ الأيام الأولى: ويرى ابن سينا أن ذلك يتحقق قبل اكتساب الوليد الإنساني اللغة والتفاهم مع الآخرين عن طريق الألفاظ وأن الوالدين يلعبان دوراً أساسياً في تنمية القدرة على استخـــدام الألفاظ للدلالـــة على الأشياء المحيطة بالطفل.

لاشـــك أن تربيـــة الطفـــل والعناية به صحياً ونفسياً كانت مـــن المواضيع التي اهتم بها العلماء والمربون العرب المسلمون الأوائـــل، ولعل ابن سينا هـــو أحد أولئك الذيـــن أفاضوا في الحديث عـــن العناية بالطفـــل في مراحل نمـــوه المختلفة بدءاً بالحياة الجنينية وحتى بلوغه سن الرشد، وهذا ما بدا واضحاً وجلياً سيما في كتابه القانون في الطب، ولقد حظيت آراؤه في هذا المجـــال عناية خاصة لدى الكثير من علماء الشرق والغرب لقرون عدة.

الحواشي

١. جعفـر آل ياسـين. حياة ابن سينا وفكره الفلسفي. دار الأندلس للطباعة.

٢. عبـد الناصر كعـدان. العنايـة بالطفل وتربيته عند ابن سينا ص٢.

٣. وهي ثلاث كلمات مبدوءة بالهاء:
Hand، Head،Heart.

٤. محمد خير عرقسوسي. ابن سينا والنفس الإنسانية مؤسسة الرسالة ١٩٨٢.

٥. محمد خير عرقسوسي. المرجع السابق.

5- Swik، KJ. AndR.E.Duffiparanting Washington Association 1979 - P132.

٦. بطرس البستـاني. دائـرة المعـارف، دار المعرفة. لبنان. مجلد ١/٥٣٥.

٧. ابـن سينا. الحسين بن علي. القانون في الطـب. دار صادر. بيروت. الجزء الأول والثاني ص ١٥٠ . ١٥٤.

٨. عبـد الرحمن بدوي. موسوعة الحضارة العربية الإسلامية مجلد١.

٩. عبـد الرحمن بدوي. موسوعة الحضارة العربية الإسلامية مجلد١.

١٠. أنطـوان الخـوري. أعـلام التربية، دار الكتاب اللبناني. بيروت.

١١. عبـد الأمـير شمـس الديـن، المذهـب التربـوي عنـد ابـن سينـا مـن خـلال فلسفته العملية.

١٢. ابـن سينـا القانـون في الطـب ج٢ ص١٧٩.

١٣. ابن سينا. كتاب القانون ج١ ص١٥٠.

١٤. عبـد الله عبـد الكـريم. التربيـة عـبر التاريخ ص١٩٠.

١٥. ابن سينا، كتاب السياسة. فصل سياسة الرجل ولده.

١٦. أحمد شلبي. تاريخ التربية الإسلامية. ص٢٩٩.
١٧. ابن سينا. كتاب القانون ج ص ١٥٧.
١٨. محمود عبداللطيف. التعبير وطرائق تدريسه. دار الجمهورية. دمشق ٢٠٠٠ ص٧٨.
١٩. ابن سينا. كتاب السياسة فصل سياسة الرجل ولده.
٢٠. ابن سينا. كتاب السياسة. المرجع السابق.
٢١. عبد الأمير شمس الدين. مرجع سابق ص١٥٢.
٢٢. ابن سينا. كتاب السياسة. فصل سياسة الرجل ولده.
داوود بن عمر الأنطاكي. تذكرة اولي الألباب والجامع للعجب العجاب. ١٩٥٢م مطبعة مصطفى الباب.
٢٣. وسمية عبد المحسن المنصور: توظيف المأثور القولي في تنمية لغة الطفل. مجلة عالم الفكر العدد ٢٨ آذار ٢٠٠٠ ص ١٤١.
٢٤. محمد زهير البابا. مؤلفات ابن سينا الطبية. منشورات جامعة حلب ١٩٨٤.
٢٥. محمود الحاج قاسم محمد. تاريخ طب الأطفال عند العرب. دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٧٨.
٢٦. ابن سينا. القانون في الطب. دار صادر بيروت ج١. ج٢ (١٥٠ ــ ١٥٠).
٢٧. محمد كامل حسين، الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات ط١ (١٩٨٧) الدار السعودية للنشر والتوزيع.
٢٨. أمين أسعد خير الله. الطب العربي. المطبعة الأميركانية. بيروت ١٩٤٦.
٢٩. أبو بكر الرازي. الحاوي. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الركن والهند. ثلاثون جزءاً ١٩٦٢ ط١.
٣٠. أحمد شوكت الشطي. تاريخ الطب وآدابه وأعلامه. مدير الكتب والمطبوعات. جامعة حلب ١٩٨٢.
٣١. أحمد عيسى. معجم الاطباء، ط٢ دار الرائد العربي. بيروت ١٩٨٢.
٣٢. عبد الله عبد الدايم: التربية عبر التاريخ ١٩٠. ١٩٥.
٣٣. أحمد الشلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص٢٦٩.
٣٤. محمود عبد اللطيف: التعبير وطرائق تدريسه. دمشق كلية مكتبة الجمهورية ٢٠٠٠ ص٧١.

☆ ☆ ☆